مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 15، عدد رقم: 02، جوان 2026، صص: 585 - 599
تاريخ الاستلام(2025/11/18) تاريخ القبول (2026/05/18) تاريخ النشر (2026/06/30)

من أوائل نحاة العربية

Among the Pioneers ofthe Arabic Grammar

كركب محمد
جامعة ابن خلدون تيارت، (الجزائر)، mohamedlaid15@gmail.com

ملخص:

يتناول هذا المقال جهود النحاة العرب الأوائل، الذين ساهموا في نشأة الدرس النحوي العربي، و الذين كان لهم قصـــب السبــق في التأسيس لذلك الدرس، وكانت النواة الأولى في نشأته، فزرعت بذلك بذور تطوره، وأخذ مكانته بين جهود الأمم الأخرى في هذا الميدان، كالهنود واليونان وغيرهم من الأمم، وسوف أحاول في هذه الورقة البحثية، أن ألقي الضوء على جهود أبي الأسود الدؤلي الذي يعتبر أول صاحب مبادرة في ذلك، وجهود كل من عيسى بن عمر الثقفي، والخليل بن أحمد، وسيبويه، وخلف الأحمر، من خلال ما تركوه، وما وصل إلينا منه في ميدان الدرس النحوي العربي.

كلمات مفتاحية. الدرس النحوي، أبو الأسود الدؤلي، عيسى بن عمر، الخليل بن أحمد، المنظومة النحوية، خلف الأحمر، المقدمة

Summary:

This article addresses the efforts of the early Arab grammarians who contributed to the emergence of Arabic grammatical studies and who were among the first to lay its foundations. They constituted the initial nucleus of its formation, thereby planting the seeds of its later development and securing its place alongside the linguistic achievements of other civilizations in this field, such as the Indians, the Greeks, and others. In this paper, I attempt to shed light on the contributions of Abu al-Aswad al-Du'ali, who is considered the first to initiate this endeavor, as well as the contributions of Isa ibn Umar al-Thaqafi, al-Khalil ibn Ahmad, Sibawayh, and Khalaf al-Ahmar, through their works and what has been transmitted to us in the field of Arabic grammatical studies.

المؤلف المرسل: كركب محمد، الإيميل: mohamedlaid15@gmail.com

Keywords: grammatical studies, Abu al-Aswad al-Du'ali, Isa ibn Umar, al-Khalil ibn Ahmad, grammatical system, Khalaf al-Ahmar, introduction

1. **مقدمة:**

إن الإرهاصات الأولى لنشأة الدرس النحوي العربي، كان في البصرة للموقع الاستراتيجي لها، فهي تتوسط الجزيرة العربية مع العراق وفارس والشام، فهي ملتقى الوافدين من كل جهة تحيط بها، زيادة على أن نزعة البداوة ما زالت تغلب عليها بعد الفتح الإسلامي، وقد مصرها عتبة بن غزوان، فتقاطر عليها العرب الفاتحون، وبدأت تتسع عمرانا سواء من ساكنيها الأصليين أو من وفد إليها بما يحيط بها من بلدان، فكان ذلك سببا في وجود وسائل الحضارة، فقامت فيها الأسواق، وكثرت متاجرها، وبدأت تقام فيها حلقات الأدب التي لم تبتعد عن عهد العرب بها.

وكان لترجمة الثقافات غير العربية أثر بالغ في اطلاع العرب على هذه الثقافات، والاستفادة منها خير استفادة، ولعل في معجم العين للخليل بن أحمد خير شاهد على ذلك، ومما روى أبو عبيدة أن النظر بن شميل لما ضاقت به المعيشة بالبصرة وأراد الخروج إلى خراسان، خرج بشيعة من أهل البصرة نحو ثلاثة ألاف رجل، ما فيهم إلا محدث أو لغوي أو نحوي أو عروضي، أو إخباري، وكان جلهم من الموالي، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هؤلاء الموالي كانوا أصحاب حضارات قديمة وعلوم مدروسة، ومدنيات موروثة.

إن وجود هذا الخليط الكبير من العرب المنتمين إلى قبائل مختلفة والموالي نتج عنه خليط من اللغات واللهجات العربية فبعضها ينصب اسم (إن) والبعض الآخر يرفعه، وبعضهم يعتبر(ليس) أداة استثناء فينصب ما بعدها خلافا للقاعدة المشهورة وهي رفع الاسم الذي يرد بعد (ليس)، وهذا كله ناتج عن ثراء العربية وبيانها وبلاغتها.

2. القراءات القرآنية و أثرها في تطور النحو:

إن القرآن الكريم يعتبر بحق خزان العربية ومنبعها الذي ينهل منه لبلاغته وإيجازه، فقد جاء بصيغ وتراكيب لم يعرفها العرب السليقيون قبل ذلك، فتعددت القراءات القرآنية حسب فهم كل واحد ولو كانوا من اتجاه واحد، ومثال ذلك أننا نجد عيسى بن عمر (ت149هـ) وعبد الله بن أبي إسحاق (117هـ) يقرآن: (يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) الأنعام: 27. وكان الحسن (ت110هـ). وأبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ)ويونس

(ت 182هـ) يرفعون (نكذب) و(نكون) فابن سلام يقول لسيبويه: كيف الوجه عندك؟ قال: الرفع، قلت: فالذين قرأوا بالنصب، قال: سمعوا قراءة ابن أبي إسحاق فاتبعوه، وكان عيسى بن عمر يقرأ (الزانية والزاني) و(و السارق والسارقة) بالفتح، وكان ينشد[1]:

يا عديا لقلبك المهتاج*****أن عفار تم منزل بالنباح

والأمثلة كثيرة لا يتسع المجال لذكرها جميعا.

3-أبو الأسود الدؤلي (ت69هـ) والنحو العربي:

لا أحد ينكر أن أول من وضع بواكير علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي بإيعاز من الإمام علي –رضي الله عنه-بغرض الحفاظ على سلامة وصون اللسان العربي ومن ورائه القرآن الكريم الذي لحقه اللحن والخطأ جراء اختلاط العرب بالعجم من فرس وروم، ومن ذلك نصب ما لا ينصب ورفع ما لا يرفع ومثال ذلك، قال تبارك وتعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فاطر: 28، فقرأ أحد(الله) بالرفع بدلا من النصب وهذا خطأ جسيم في القرآن الكريم.

فكيف لله تبارك وتعالى الخشية من العلماء، لأن الصواب بالنصب لأنه مفعول مقدم.

ولقد ذكر ابن قتيبة أن أبا الأسود أول من وضع كتابا في النحو.

أما في الفهرست[2]لابن النديم ذكر أن المدائني له كتاب سماه (كتاب أبي الأسود الدؤلي).

وفي نفس الكتاب ترجمة لشخصية اسمها زهير بن ميمون الهمداني[3]و يكنى أبا محمد وكان قارئا، وسئل زهير أنّى لكم النحو؟ فقال: سمعناه من أصحاب أبي الأسود وأخذناه.

وهناك نصوص نحوية أخرى كلها تصب في هذا المجال تدل أن جهود أبي الأسود كانت جبارة في نشأة النحو وتطوره في منحى تصاعدي سريع وكان علم يسمى(العربية) في عهده.

هل تطور النحو بعد أبي الأسود الدؤلي؟

إن النحو تطور تطورا لافتا بعد أبي الأسود الدؤلي، فألِفت كتب وتصانيف عدة أذكر على سبيل أول محاولة للتأليف في مجال النحو كتابي (الإكمال) و(الجامع) لعيسى بن عمر بعد اجتهادات أبي الأسود، وقد أخذ تلامذة أبي الأسود على عادتهم تطوير النحو وتنميته،

فزادوا فيه ما شاءوا، وكان عملهم هذا يسير في خطين متوازيين، أحدهما نقط المصاحف وثانيها إضافة أبواب نحوية جديدة وهؤلاء التلاميذ هم عبد الرحمان بن هرمز وميمون الأقرن وعنبسة الفيل، وسار على نهجهم تلاميذهم أيضا كيحيى بن يعمر ونصر بن عاصم الليثي وعبد الله بن أبي إسحاق. ..و كل هؤلاء يمثلون ما يعرف بالمدرسة البصرية والنواة الأولى لها، واتخذ هؤلاء كتابي الجامع والإكمال كمرجعين لاستنباط بعض الآراء النحوية، ثم جاء بعد هؤلاء وفي فترة لاحقة الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي له دور بارز وكبير في المدرسة البصرية فألف كتابه المشهور المعروف بمعجم (العين) والنواة الأولى لعلم الصوتيات نظرا للمادة الواردة فيه، وجاء تلميذه من بعده سيبويه الذي اجتهد في جمع ما وجد من أثار نحوية لسابقيه، وخصوصا شيخه الخليل وجمع ذلك في كتاب سماه(الكتاب)، فيعتبر المرجع الأول والسفر العظيم في علم النحو وسماه بعض النحاة الأوائل (قرآن النحو).

وزيادة على ذلك نجد مناظرات نحوية شفوية دارت بين الكثير من النحويين، مثل ما دار بين ابن إسحاق وعيسى بن عمر الثقفي وأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد، وسأقوم فيما بقي من هذا البحث القصير ذكر إسهامات بعض من الذين ذكرتهم سلفا، والتي تعتبر البدايات الأولى للدرس النحو العربي.

4-إسهامات أبي عمرو بن العلاء (154هـ):

هو زبان بن علاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين بن الحارث بن جلهم بن خزاعة بن مالك بن عمرو بن تميم ويكنّى بأبي عمرو بن علاء[5]، وُلِدَ بمكة ثم نزح إلى البصرة وهو أحد القراء السبعة المشهورين، أخذ النحو عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم الليثي وعبد الله بن إسحاق الحضرمي وهو في النحو في الطبقة الرابعة.

قال عنه أبو عبيدة: "كان عمرو بن علاء أعلم الناس بالأدب والعرب والقرآن والشعر"[6].

أما الأصمعي فقال عنه: "سألت أبا عمرو عن ألف مسألة فأجابني فيها بألف حجة"[7].

وقال أبوبكر الزبيدي(ت379هـ): "كان أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها من عبد الله بن أبي إسحاق"[8].

وقال الخليل: "كان عبد الله يُقدّم على أبي عمرو في النحو، وأبو عمرو يُقدّم عليه في اللغة"[9].

وروى الأصمعي عن أبي علي القالي أنه قال: سمع أبو عمرو رجلا ينشد [10]:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره **** ومن يغو لا يعدم على الغيّ لائما

فقال أقوِمك أم أتركك تتسكع في طمّتك؟ قال: بل قوّمني، فقال: قل ومن يغوِ بكسر الواو ألا ترى إلى قول الله عز وجلّ: "فغوى"[11].

وقال أبو الطيب اللغوي: "لو يُوجد على أبي عمرو خطأً في شيء من اللغة إلا في حرف قصر عن معرفته على من خطأه فيه ورواته"[12].

وحكى الأصمعي أيضا عن يونس أنه قال: "قيل لأبي عمرو بن العلاء ما الثغر؟ فقال الإست فقيل له إنه القبل، فقال: ما أقرب ما بينهما! فذهب قوم من أهل اللغة إلى هذا غلط من أبي عمرو وليس كما ظنوا.

أثاره:

من المعروف أن أبا عمرو لم يترك شيئا مكتوبا يدل على ما قام به، وتقول الروايات أنه تنسك في أواخر أيامه، فيقول ابن خلكان: "وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرّأ –أي تنسك-فأحرقها كلها فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه في قلبه وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية" [13].

ومما أُثِر عنه ونُسِب إليه في كتاب سيبويه:

قوله عن المستثنى بإلا: قراءته: "خاشعا أبصارهم"[14].

وقد شملت أكثر من أربعين موضعا منها ما ذكرته سابقا.

وخلاصة القول مما سبق إن إسهامات أبي عمرو في النحو كبيرة وجبارة، فقد حاز مكانة عظيمة ومنزلةً رفيعة بين من عاصرهم وقُدّم على من سبقه في كثير من القضايا وكذلك بالنسبة للذين جاءوا من بعده، وما أراء العلماء فيه إلا خير دليل على ذلك فقد شهدوا له بسعة علمه واطلاعه وتصدره في كثير من العلوم والمعارف ويكفي ما قاله السيوطي: "كان إمام أهل البصرة في القراءات والنحو واللغة"[15].

5-خلف الأحمر(189هـ) ورواية الشعر:

وممن يشهد له بموهبة قد لا يوجد لها نظير، شخصية ذاع صيتها في النحو والأدب والرواية خلف الأحمر، وقد كان معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة [16]كان أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيّده وقيل أنه كان يصنع الشعر ويضعه وكان أعلم به، وفي ذلك يقول الرياشي، "سمعت الأخفش يقول لم ندرك هاهنا أحدا أعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعي "[17]وقال عنه أيضا أبو الطيب اللغوي: "كان خلف يصنع الشعر وينسبه إلى العرب فلا يعرف، ثم نسك، وكان يختم القرآن في كل يوم وليلة"[18].

ومن أرائه النقدية أنّ رجلا قال له: "إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه، فما أبالي ما قلت أنت وأصحابك، فقال خلف: إذا أخذت درهما فاستحسنته فقال لك الصرّاف: إنّه رديء!فهل ينفعك استحسانك إيّاه؟

وزيادة على ما ذُكِرَ عن شخصية خلف فقد كان أيضا صاحب خبرة في اللغة والشعر.

6-تأليفه لكتاب المقدمة في النحو:

لقد تضاربت الروايات في نسب الكتاب (المقدمة) هل هو لخلف الأحمر أم لغيره؟و هل هو سابق لكتاب (الكتاب)لسيبويه أم أنّ (الكتاب)قبله ومهما يكن من أمر فكلاهما أي سيبويه أو خلف الأحمر ضليعان في علم النحو، وأن هذا العلم قد بلغ من الشأن ما بلغ في عهدهما، وإذا صحت نسبة المقدمة لخلف الأحمر، فما من شكٍ أنّه عمل جبار قام به حسب المختصين، وقد جاء فيه الكثير من الأبواب في علم النحو وكغيره ممن سبقه، فقد اقتفى أثر من سبقه وتأثّر بهم في هذا العلم، لذا نجد في باب النسق (العطف) ما يدل على هذا التأثر، فقد نهل من كتب سابقيه واستفاد منها فهو يقول: و ذكرها الخليل بن أحمد في قصيدته النحوية[19].

كما أن الجمل التي مثل بها خلف الأحمر لبعض القواعد النحوية تدل على أنه شاب يشتهي الحياة، ويطمح إلى نيل المعالي، ونفسه تواقة لشرب الشراب الماتع، وملاقاة الجيوش، ومن جمله التي مثل بها نجد:

رأيت عبد الله الظريف راكبا وأخاك الشجاع خارجا.... وقاتل الجيش.

وكان هدفه في تأليف الكتاب أنه أراد أن يجمع فيه الأصول والأدوات والعوامل على أصول المبتدئين يستغني به المتعلم عن التطويل.

أما منهجه في تأليف الكتاب، أنه صدّر كتابه بمقدمة وضّح فيها الهدف من تأليفه، وذكر بأن العربية على ثلاث، الاسم والفعل والحرف جاء لمعنى، ومما يلاحظ على هذا التقسيم أنه عربي أصيل، وهذا ينسب تارة للإمام علي-رضي الله عنه-، وتارة أخرى لأبي الأسود الدؤلي، وهذا يدحض أقوال الكثير الذين يعتبرون أن النحو العربي من وضع الأجانب.

أما مختصره ا(النحو) فقد بوبه إلى أربعة وثلاثين بابا، بدأها بباب الحرف التي ترفع كل اسم بعدها، وأدخل فيها حتى الحروف الكافة عن العمل مثل: إنما وكأنما. ...

وختم كتابه قائلا: "فقد اختصرنا الأبواب وبينا العلل والأسباب وجمعنا الأصول كلها في هذا الكتاب فاستعمله وقس عليه"[20].

أمّا إذا رأى آية ذات علاقة بقاعدة وهي تحتاج إلى تعليل وتطويل يستدل بإشارة عابرة ثم يقول: سل عنها أهل العربية ومما يُسْتَشَفُّ من كلامه هذا حسب أهل الاختصاص أمرين: أحدهما أنه لم يكن يفرق بين ماهو لغوي أو نحوي، وأن النحو لم يكن إلا جزءا واحدا من أجزاء اللسان العربي.

كما أنه كان يفصل بين الأوجه الاصطلاحية التي كانت شائعة في المدرستين، البصرة والكوفة، أو لدى بعض العلماء الآخرين الذين لم يكونوا من هذه ولا من تلك.

وجملة القول أن خلف الأحمر ممن أسسوا للنحو العربي، ومن رجاله العظماء الذين لم يدخروا جهدا من أجل السير بهذا العلم إلى الأمام، وإعطاءه المكانة التي يستحقها، لم له من أهمية بالغة في صون العربية وحفظها من كل لحن أو زلل قد يلحقها.

7-أهم ما صنفه عيسى بن عمر الثقفي (ت149هـ):

هو أبو عمر عيسى بن عمر الثقفي، يُروى أنه نزل في ثقيف فنُسِب إليهم، وتتلمذ على يدي عبد الله بن إسحاق وأبي عمرو بن علاء قراءة ونحوا، ذكر ابن خلكان: "أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل بن أحمد، سأل الخليل عن مصنفات عيسى بن عمر، فقال له الخليل: "صنف نيفا وسبعين مصنفا في النحو، وأن لبعض أهل اليسار جمعها فأتت عليها آفة فذهبت، ولم يبق منها في الوجود سوى كتابين أحدهما اسمه (الإكمال) وهو بأرض فارس عند فلان والأخر(الجامع) الذي أشتغل فيه، وأسألك عن غوامضه، فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال: رحم الله عيسى وأنشد[21]:

ذهب النحو جميعا كلـه ***** غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع ***** وهما للناس شمس وقمـــــــر

فأشار بالإكمال إلى الغائب، وبالجامع إلى الحاضر، وكان عيسى بن عمر قد جمع مسائل النحو وقواعده في الجامع، ثم رأى إكمال تلك المسائل والقواعد في (الإكمال).

ومما عُرِفَ عنه أيضا أنه كان حريصا ومنقطعا لمدارسة اللغة والنحو والقراءات، فقد قال عنه أبو الطيب اللغوي: "كان أفصح الناس"[22]، أما السيرافي فقال عنه: "و كان عيسى بن عمر فصيحا، ويروى عنه أشياء كثيرة من القراءات"[23].

وقد اشتهر عيسى بن عمر بتقعره في الكلام، وطعنه على العرب، ومحاولته تخطئة المشاهير كالنابغة الذي خطّأه في قوله:

فبِتُّ كأنّي ساورتني ضئيلة *****من الرقّشِ في أنيابها السم ناقع[24].

حيث قال: "وجهه أن يكون السم ناقعا" [25]، على أنّ (ناقعا) حال من السم، إلا أن سيبويه قد ساق هذا البيت شاهدا على إلغاء الجار والمجرور إذا تقدّم وأعرِب (السم) مبتدأ، و(ناقع) خبر.

وقد بلغ من طعنه على العرب واعتداده بنفسه أن قال لأبي عمرو بن العلاء "أنا أفصح من معد بن عدنان".

ومن أثاره أيضا زيادة على الكتابين السابقين، جملة من الآراء التي تعكس مدى التزامه بمنهج أستاذه عبد الله بن أبي إسحاق.

وخلاصة القول إن عيسى بن عمر يُعتبر من الأوائل الذين أسهموا في التأسيس لعلم النحو، وتطويره والتصنيف فيه، وما شهادة الذين عاصروه، أو من جاء بعده إلا خير دليل على ذلك.

8-سيبويه(ت180هـ) وجهوده النحوية:

قبل التطرق للجهود النحوية لسيبويه يجدر بنا أن نعرف بهذا الرجل العظيم الذي بلغ منزلة لم يبلغها ما قبله ولا بعده، هو عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بـ (سيبويه) ويُكنّى أبا بشر وتقول الروايات أنه لُقِب بسيبويه لأنّه كان جميلا وسيما وكان أينما تلقاه تشمّ رائحة الطيب تفـوح منه[25].

وقال إبراهيم الحربي: "سُمِيّ سيبويه لأن وجنتيه كانت كأنهما تفاحتان، وكان في غاية الجمال"[26].

وذهب الأستاذ عبد السلام هارون إلى القول بأن القول بأن (ويه)تعني في الفارسية الرائحة زعم باطل لا أساس له من الصحة، وذهب إلى أنها لاحقة من اللواحق الأعجمية، ولها شبه باللفظ العربي(ويه) الذي هو اسم الفعل.

ومن أقوال العلماء فيه ما يكاد يُذْكَرُ سيبويه من طرف العلماء إلا أُثنِيَ عليه، وذلك بالإشادة بعلمه والتعجب من شِدّة ذكائه وعقليته الفذّة وقد ذاعت شهرته رغم قصر سنه حيث تُوفِيَّ في أوائل الثلاثينيات من العمر ولم يتصدر التدريس لحبسه في لسانه.

قال ابن عائشة: "كنّا نجلس مع سيبويه النحوي في المسجد، وكان شابا جميلا نظيفا، وقد تعلَّق من كلِّ علم بسببٍ، فضرب فيه بسهم مع حداثة سنِّه وبراعته في النحو"[27].

وقال ابن النطّاح: "كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه، فقال الخليـــل: مرحبا بزائـر لا يُمَلُّ "[28].

قال أبو عمر المخزومي: "و كان كثير المجالسة للخليل، ما سمعت الخليل يقولها إلا لسيبويه"[29].

أما الأخفش -سعيد بن مسعدة-فقال: "كان سيبويه إذا وضع شيئا من كتابه عرضه عليَّ و هو يرى أنِّي أعلم منه-و كان أعلم منِّي –وأنا اليوم أعلم منه"[30].

وقال أبو الطيب اللغوي: "و أخذ النحو عن الخليل جماعة لم يكن فيهم في غيرهم من الناس مثل سيبويه، وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل"[31].

<u>كتاب سيبويه:</u>

هو سفر عظيم تركه سيبويه في ساحة الخلود أثرا وأرسله مع الأيام ذكرا، وادّخره للعربية كنزا وندبة في العالمين، شاهدا على براعته فيها، ونفاذه إلى أسرارها وإمامته في الاشتراع لها، وضبطه لأصولها على نحو يعِزُّ نظيره في الأوّلين والآخرين.

وتقول المصادر إنّ سيبويه ترك كتابه دون تسمية، ولم يضع له اسما بعينه، إذ ربما على نية العود إليه، لأن لديه منه بقية، ولا يزال في نفسه شيء منه، فأرجأ تسميته حتّى يفرغ منه، ويبلغ غاية ما يريد ولكنه أعجل عن ذلك، إذ وافته المنية وهو في ريعان شبابه فاحتضر في الثانية والثلاثين من عمره [32].

وبلا شك أن إطلاق العلماء اسم(الكتاب) على هذا المُؤلَّف جعله أشهر من نار على علم، فكان حقا اسما لا يدانيه اسم غيره، فهو كتاب جامع لما احتواه من إعراب وعروض وصوتيات، بالإضافة إلى إشارات في علوم البلاغة والقوافي والقراءات وفقه اللغة وصناعة الشعر، ولهجات العرب ومذاهبها في الكلام مع التعليل والتفسير، وكذلك الترجيح للمذاهب واللهجات

والآراء والاستدلال بالقرآن الكريم، وبلغت الآيات القرآنية المستشهد بها 373 آية و40 حديثا نبويا ومن الأبيات الشعرية ألف وستة وخمسين بيتا، وآلاف من النصوص النثرية من كلام العرب، فبذاك أُعتبر إمام النحاة حتى يومنا هذا، واسمه الشائع لكتابه بينهم (قرآن النحو).

وقد تلقفته أيدي علماء البصرة والكوفة على حد السواء وغيرها من الأمصار كبغداد والشام ومصر والمغرب والمشرق، وقرأه ألاف العلماء وشرحه الكثير من النحاة كالأخفش الأوسط والمازني والسيرافي والرماني والشلوبين وأبي حيان الأندلسي، وشرح خطبته أو شواهده عدد من العلماء وعلَّق عليه آخرون بتعقيبات واستدراكات حتى صار في عالم النحو مالىء الدنيا وشاغل الناس، وكان بعضهم يختم قراءته كل خمسة عشر يوما مرة، أما توزيع مواد الكتاب فهو على أكثر من خمسمائة باب متوالية، تجد بينها علاقات واضحة، وتفتقد أبواب أخرى مثل هذه العلاقات، حسب المختصين، وقد قسم الأصول والقواعد والأحكام وأدلتها إلى أجزاء غفيرة جدا، وقد لا نجد هذا التوزيع عند الكثير من المصنفين القدامى كإصلاح المنطق، والألفاظ لابن السكيت وحماسة البحتري والمقتضب للمبرد والموجز والأصول لابن السراج....و غيرهم كثير.

أما منهج سيبويه في تأليفه للكتاب فلم يكن على منهج سابقيه وخصوصا منهج أستاذه الخليل بن أحمد بل سار على الخط الأفقي، بعيدا كل البعد عما حققه معاصروه.

9-تاريخ تأليف الكتاب:

لا أحد يعلم متى بدأ سيبويه تصنيفه للكتاب، ولا حتى إلى ما انتهى إليه منه وقد انتقل إلى جوار ربه تعالى، دون أن يقرأه على أحد ولم يقرأه عليه أحد فلم يخرجه إلى الناس، ولم يعلم به أحد باستثناء الأخفش (ت215هـ) –سعيد بن مسعدة –الذي استودعه سيبويه

الكتاب عند لقائه بشاطىء البصرة في طريق عودته إلى الأهواز بعدما عاد من مناظرته المشهورة مع الكسائي [33].

ولقد اجتهد العلماء في الوقوف على زمن تأليفه للكتاب فاختلفوا إلى فريقين حسب المختصين:

الأول: يرى أن سيبويه بدأ تأليفه للكتاب بعد موت الخليل بن أحمد بعد سنة ستين ومئة للهجرة ويمثل هذا الفريق الأستاذ المرحوم عبد السلام هارون ويقدم دليلين على ذلك:

1-أن مخطوطات الكتاب كثيرا ما يوجد بها تعقيب سيبويه على قول الخليل بعبارة-رحمه الله-.

2-ما يرويه نصر بن علي بن نصر بن علي الجهضمي عن أبيه أنه قال: "قال لي سيبويه-حين أراد أن يضع كتابه، تعال حتى نتعاون على إحياء علم الخليل"[34].

الثاني: يرى أن سيبويه صنف بعض الكتاب في حياة الخليل، وصنف البعض الآخر بعد موته، ويمثل هذا الفريق الأستاذ علي النجدي ناصف[35]-رحمه الله-و يستدل بأمرين:

1-أن سيبويه لم يلتزم التعقيب على قول الخليل بعبارة(رحمه الله) في كل أبواب الكتاب، ولا كلما ذكر قولا للخليل.

2-ما رواه القفطي من أن سيبويه عرض شيئا من (الكتاب) على الخليل، حيث يقول: "وقد قيل إنه أخذ كتاب عيسى بن عمر المسمى بـ(الجامع) وبسطه وحشى عليه من كلام الخليل وغيره وإنه كان كتابه الذي اشتغل به، فلما أشكِل بالبحث والتحشية نُسِبَ إليه"[35].

أما نسبة الكتاب لسيبويه فلم يكن إلا عن طريق الأخفش بقوله:

"ويقال إن أبا الحسن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه لا نظير له في حسنه وصحته، وأنه جامع لأصول النحو وفروعه، استحسنه كل الاستحسان"[37].

10-الخليل بن أحمد (ت174هـ) والقصيدة النحوية:

إنَّ جهود الخليل بن أحمد في النحو جهود جبارة فهو صاحب كتاب(العين) الفريد في تأليفه، والذي دل على أن الخليل ذو عقلية رياضية، فقد جمع في هذا المعجم كلَّ ألفاظ اللغة المستعمل منها والمهمل، وقد رتَّب حروفه حسب مخارجها، فهو يبدأ بحرف العين لأنه أنصع الحروف الحلقية وبه سُمِّيَ معجمه، وله تآليف أخرى لا تقل أهمية عن هذا المعجم منها كتاب (معاني الحروف) وكتاب(اللفظ) وكتاب (النَّقط والتشكيل) ...الخ.

وله أراء وتوجيهات التي لم يتضمنها كتاب من تأليفه فهي تخص علمي (النحو والصرف).

وقد تساءل مختصون حول المنظومة النحوية أهي للخليل بن أحمد أم لغيره؟ مستندين في ذلك على أن تلميذه سيبويه لم يذكرها، وقد أشار إليها خلف الأحمر في مقدمته النحوية لكن الإشارات حولها تؤكِّد أنها للخليل وليست لغيره، وهي من النُّظوم العلمية التعليمية التي عكف الخليل على نظمها مثل بقية كتبه الأخرى التي لا تقل شأنا عنها، وقد أثنى العلماء على الخليل وعلى ما ألفه من كتب، فهذا سفيان الثوري يقول عنه: "من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد"[38].

وقال محمد التوجي: "اجتمعنا بمكة أدباء كل أفق، فتذكرنا أمر العلماء، فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم ويصفونهم ويقدمونهم، حتى جرى ذكر الخليل فلم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكر العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرفها"[39].

وقال يحيى بن خالد البرمكي: "أربعة ليس في فنّهم مثلهم: أبو حنيفة في فنِّه، والخليل بن أحمد في فنّه، وابن المقفع في فنِّه، والفزّاري في فنّه"[40].

11-خاتمـة:

ما يمكن أن نستخلصه من هذه الورقة البحثية ما يلي:

-أن جهود النحاة العرب الأوائل كانت جبارة، وكل ذلك من أجل الحفاظ على اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، ونلخص هذه الجهود لهؤلاء:

1-جهود أبي الأسود الدؤلي في نشأة النحو العربي بإيعاز من الإمام علي –رضي الله عنه.

2-جهود الكثير من تلامذته ومن بين هؤلاء (عبد الرحمان بن هرمز وعنبسة الفيل وميمون الأقرن...الخ).

3-جهود عيسى بن عمر وتأليفه لكتابي (الجامع والإكمال).

4-جهود الخليل بن أحمد وتأليفه لكتاب (العين) و(المنظومة النحوية) وغيرها كثير ما وصلنا منها وما لم يصل.

5-جهود خلف الأحمر والمتمثلة في كتاب (المقدمة النحوية).

6-جهود سيبويه العظيمة التي تمثلت في تأليفه للكتاب والذي يعتبر المرجع الأول في النحو العربي.

7-أن هذه الجهود تؤكد أن الدرس النحوي العربي فكرة عربية خالصة، مهما كانت هويَّة المؤلّف أو النحوي لأنه عربي اللسان، وصدق الحبيب المصطفى: "من تكلَّم العربية فهو عربيّ".

8-أن جهود هؤلاء الأوائل بغض النظر عن قيمة المؤلفات سواء وصلت إلينا أم لم تصل، فإنها المؤسِّسة للدرس النحوي العربي الذي وجد مكانته اللّائقة في الدرس اللساني العالمي.

وهذا لا يعني أن حلقة الدرس النحوي العربي قد اكتملت عند هؤلاء بل استمرت الجهود، وما الجهود اللاحقة لهذه الفترة إلا خير مثال على ذلك، ومنها جهود (المبرد) و(ابن الأنباري) و(السيرافي) و(ابن جني) وغيرهم كثير لا يتسع المجال لذكرهم جميعا.

كما ينبغي على الدارسين والباحثين في هذا الميدان الاهتمام أكثر بتراث هؤلاء الرجال، ونفض الغبار على كثير من المؤلفات التي ما تزال مخطوطة ولم تُحَقَّق بعد، وذلك لأهميتها في الدرس النحوي العربي، زيادة على الاستفادة من تجارب الآخرين لا سيما الغربيين منهم، لما له من أهمية بالغة في تجديد وتيسير النحو العربي.

الإحالات والهوامش:

1- الشعر والشعراء، ج 2، ص453: 458.

2- الشعر والشعراء، ج 2، ص453: 458.

3- الفهرست لابن النديم ص: 420.

4- توفي سنة 215هـ

5- وفيات الأعيان، ج3، ص: 466 وبغية الوعاة، ج 2، ص: 231.

6- مراتب النحويين، ص: 32.

7-وفيات الأعيان، ج3، ص: 466.

8-طبقات الزبيدي، ص: 34.

9-مراتب النحويين، ص: 33.

10- طبقات الزبيدي، ص: 36، والبيت للمرقش الأصغر، انظر المفضليات، ص: 247.

11-من الآية 20 سورة طه.

12- مراتب النحويين، ص: 41، 42.

13-ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 32، ص: 466.

14-القمر: الآية 7.

15-أخبار النحويين البصريين، ص: 142.

16-أبو محرز خلف الأحمر بن حيان بن محرز ت 180هـ، انظر نزهة ألباء ص: 52و معجم الأدباء، ج2، ص: 313 والوافي بالوفيات ج 13، ص: 219 والموسوعة الميسرة ص: 872.

17-الوافي بالوفيات، ج13، ص: 220.

18- نفسه، ج13، ص: 220.

19-خلف الأحمر، المقدمة، ص: 49.

20-نفسه، ص: 50.

21-وفيات الأعيان، ج3، ص: 486.

22-مراتب النحويين، ص: 43.

23- أخبار النحويين البصريين، ص: 49.

24-البيت من إحدى إعتذاريات النابغة إلى النعمان بن المنذر وهي في ديوانه ص: 51.

25-الزبيدي، طبقات الزبيدي، ص: 41.

26-طبقات الزبيدي، ص: 72 ومعجم الأدباء، ج16، ص: 14.

27-ابن خلكان، وفيات الأعيان نج 3، ص: 465.

28-طبقات الزبيدي، ص: 67.

29-نفسه، ص: 67.

30-نفسه، ص: 67.

31-مراتب النحويين، ص: 106.

32- انظر سيبويه إمام النحاة، ص: 125 وأخبار النحويين البصريين، ص: 64.

33-مراتب النحويين، ص: 278.

34-الكتاب، المقدمة، ص: 24.

35-سيبويه إمام النحاة، ص: 125.

36-إنباه الرواة، ص: 347.

37-نزهة الألباء، ص: 185.

38-المزهر، ج 1، ص: 64 ودراسات في المعاجم العربية، ص: 13.

39-مراتب النحويين، ص: 56.

40-مراتب النحويين، ص: 68.

قائمة مصادر البحث ومراجعه:

1. الشعر والشعراء لابن قتيبة، شرح وتحقيق أحمد محمود شاكر، دار المعارف –القاهرة مصر.

2. المقدمة في النحو لخلف الأحمر، تحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1961.

3. المنظومة النحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي، دراسة وتحقيق: د/أحمد عفيفي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1995.

4. الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة.

5. الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية، د/عبد الجليل مرتاض، طبعة دار هومة، بوزريعة، الجزائر.

6. الفهرست، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب، تحقيق رضا تجدد، طهران، 1971.

7. الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1988.

8. أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، القاهرة، ط 1374هـ

9. أخبار النحويين، ع الواحد بن عمر أبي هاشم، تحقيق د/محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، مصر.

10. مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، القاهرة، ط 2.

11. نزهة الألباء، أبو بكر الأنباري، ط القاهرة، دون تاريخ.

12. طبقات الشعراء، لابن سلام الجمحي، اللجنة الجامعية.

13. وفيات الأعيان، ابن خلكان،، القاهرة، ط 1948.

14. سيبويه إمام النحاة، علي ناصف النجدي، مطبعة نهضة مصر.

15. ديوان النابغة الذبياني، المطبعة الوهبية، مصر 1293هـ